زعماء الحركة القومية

السيد محمد كريم

للأستاذ عبد الباسط محمد حسن

(٣)

بعد أن انتهى الفرنسيون من احتلال مدينة الإسكندرية أمر نابليون بإبقاء « السيد محمد كريم » حاكما لها حتى يخلد الأهالى إلى الهدوء والسكينة، وينصرف الجميع إلى أعمالهم

وكان نابليون يعلم تماما أن الأهالى وعلى رأسهم « السيد محمد كريم » لم يخضعوا له إلا إذعانا للقوة المسلحة ، وأنهم يتحينون الفرص للثورة على الحكم الجديد ، ولذلك عمل على التقرب إليهم لينال عطفهم ، ويكسب مودتهم

وقد بين لهم أنه ماجاء إلى مصر — إلا ليحارب المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد وحرموا الفلاح المصرى ثمرة خيراته ، واعتدوا على التجارة وأساءوا إلى أهل البلاد بما ارتكبوا من مظالم

وأخذ نابليون يذيع منشوراته على الأهالى ، ليثبت هذه المعانى فى نفوسهم ، ويضمن ولاءهم للجمهورية الفرنسية ، كما طلب أعيان الثغر وألزمهم بجمع السلاح ، وإحضاره إليه حتى لا يفكر الأهالى فى المقاومة المسلحة

وكان مما قاله للسيد محمد كريم

(١) « لقد أخذتك والسلاح فى يدك ، وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ولكنك استبسلت فى الدفاع ؛ لذلك أعيد إليك سلاحك وآمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة »

ولم يكن هذا القول من جانب نابليون إلا تقديرا منه لجهود « السيد محمد كريم » وعلمه بما يشعر به الشعب نحوه من محبة وإكبار وتقدير

وقبل أن يترك نابليون مدينة الإسكندرية ، عين الجنرال « كليبر » حاكما لدائرة الإسكندرية وضواحيها » وأوصاه بأن يعمل كل ما فى وسعه لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الأهالى وإبداء كل أنواع الاحترام للعلماء ورؤساء المشايخ فى المدينة»

* * *

بهذا نرى أن « السيد محمد كريم » بقى فى منصبه بناء على رغبة نابليون، ولكن هذا الحاكم الوطنى المحب لبلاده ، المخلص للسلطان العثمانى خليفة المسلمين وظل الله فى أرضه ، كان يشعر بالكراهة والمقت لهؤلاء الحكام الأوربيين

وقد زاد من نفوره منهم وحقده عليهم أنهم فرضوا على الأهالى غرامة قدرها ستة آلاف جنيه تقريبا فى الوقت الذى حل فيه الكساد محل الرخاء . . وانتشرت الفاقة والضيق بالأهالى بعد أن كانوا أوفر ثروة ، وأحسن حالا

وقد زاد من سوء الحالة أن الجنود الفرنسيين بدأوا يشكون من البلاد المصرية بعد أن ذاقوا ملذات المدن الإيطالية ؛ وبعد أن وجدوا أن الأمانى التى وعدهم بها نابليون لم تكن إلا مجرد وهم وخداع ، وظهرت روح التمرد بين الجنود ، فأخذوا يغتصبون ثمار الأشجار ويقطعون النخيل من جذوعه ، ويعتدون على الأهالى المسالمين . .

ولقد ظلت روح التمرد والعصيان كامنة فى نفوس الأهالى حتى أشعلها « السيد محمد كريم » وأوقد نارها من جديد

فاعتدى الأهالى على أحد جنود مدفعية الأسطول ، وألقوا جثته فى الطريق ، كما ألقوا فى البحر خادم أحد الضباط فمات غرقا ، وقد ثارت ثائرة « كليبر » وأراد أن ينتقم من الجناة . . ولكنه لم يعثر لهم على أثر ، كما تأكد لديه أن الجندى الفرنسى قد تعرض للقتل نتيجة لاعتدائه على الأهالى

ولذلك أصدر منشورا إلى جنوده ، طالبا منهم أن يحافظوا على أنفسهم بحماية الأهالى والمحافظة عليهم ، ومهدداً بالإعدام كل جندى يعتدى على حقوق المسلمين الدينية أو المدنية

ولم يقتصر السيد محمد كريم على إثارة روح الكراهية والثورة فى نفوس الأهالى ، بل جعل يتصل بجميع المدن والقرى التى يمر بها رجال الحملة الفرنسية ليعدوا للأمر عدته ، وليقاوموا

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ١٢٦

نابليون وجنوده بكل ما استطاعوا من وسائل المقاومة

وقد حدث أن إحدى الكتائب الفرنسية خرجت من الإسكندرية لتقوم بحملة تفتيشية فى بعض الجهات المجاورة — فلما علم السيد محمد كريم بما يعتزمه الفرنسيون ، اتصل بالمدن والقرى القريبة ، وطلب منها أن تقاوم الكتيبة ، وتمنع الماء عن رجالها

فلما غادر الفرنسيون الإسكندرية ، تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى دمنهور ، وكانوا يجدون مقاومة شديدة من جانب الأهالى ، كما قتل منهم ما يقرب من ثلاثين جنديا ، ولذلك عادوا إلى الإسكندرية وهم فى حالة سيئة ، وقد ثبت لديهم أن الأهالى لم يخضعوا — بعد — للحكم الفرنسى ، وأن هناك اتصالا مستمرا بين الإسكندرية وغيرها من المدن والقرى

ولما علم الجنرال « كليبر » بما لاقته الكتيبة من مقاومة ومشقة ، أراد أن يقضى على حركة المقاومة — ويقوم بعمل حاسم يستعيد به هيبة الجيش الفرنسى ، ويسترجع مكانته فى نفوس الشعب ، فأمر بالقبض على « السيد محمد كريم » وبعث به إلى أبى قير ، تمهيدا لتوصيله إلى القاهرة ، حيث يقابل نابليون ، ويدفع عن نفسه التهم الموجهة إليه ، وفى نفس الوقت ، أرسل الجنرال كليبر كتابا إلى نابليون يعرض فيه أمر السيد محمد كريم ، ويطلب منه ألا يأمر بعودته إلى الاسكندرية حتى لا تعظم مكانته ويستفحل أمره — ويزداد نفوذه فى نفوس الأهالى

وقد مكث « السيد محمد » فى أبى قير أياما .. طلب بعدها من الأميرال « بردى » قائد الأسطول أن يأمر بتوصيله إلى القاهرة . فأرسله الأميرال بدوره إلى رشيد .. ليبعث به الجنرال مينو إلى القاهرة ...

ومما هو جدير بالذكر .. أن « السيد محمد كريم » على الرغم من أن دائرة حكمه لم تكن تتعدى الاسكندرية .. إلا أن شهرته قد انتشرت فى جميع أجزاء مصر .. وأصبح المصريون — على اختلاف طبقاتهم — ينظرون إليه على اعتباره محور المقاومة للنظام الجديد .. وعلى اعتباره زعيمهم المعبر عن أمانيهم .. والمفصح عن آمالهم ...

يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى :

« [٢] وصل السيد محمد كريم .. إلى رشيد .. مطلق السراح ، وكانت منزلته من نفوس المصريين قد عظمت بسبب اعتقاله .. وانتشرت محبته فى كل مكان .. فلم يكد يعلم أهالى رشيد بمقدمه حتى سارعوا إلى ملاقاته بالحفاوة والتكريم .. مما اضطر الجنرال مينو إلى القبض عليه .. والإسراع بإرساله إلى مصر ... »

وما كاد السيد محمد كريم يصل إلى مصر .. حتى أصدر نابليون أوامره إلى الجنرال « ديبوى » حاكم القاهرة : بالتحقيق معه .. كما طلب منه أن يحاول إثبات التهمة عليه بمختلف الوسائل

ولم تكن هناك حاجة إلى التحقيق ، فسرعان ما انتهى بثبوت التهمة عليه .. وإعلان خيانته للجمهورية الفرنسية

« [٣] وأصدر نابليون أمرا بإعدامه رميا بالرصاص .. ومصادرة جميع أملاكه وأمواله .. وسمح له أن يفتدى نفسه بدفع ثلاثين ألف ريال فى أربع وعشرين ساعة »

فرفض السيد محمد أن يدفع له هذا المبلغ .. ولم يكن ذلك منه عجزا .. أو حرصاً على المال .. وإنما كان إيمانا بالله .. وإيمانا بأن الموت مصير كل إنسان .. ونهاية كل مخلوق

فليكن موته إذن على أيدى أعدائه .. وأعداء بلاده .. حتى يكون ذلك وقودا جديدا للثورة .. وباعثا للمصريين على مواصلة الكفاح والنضال لتحرير بلادهم من أيدى أعداء الدين والوطن

ولقد نصحه أحد تراجمة الحملة بأن يدفع الغرامة .. وقال له :

— « [٤] إنك رجل غنى .. فماذا يضيرك أن تفتدى نفسك بهذا المبلغ ؟؟

فأجابه السيد محمد كريم :

— « إذا كان مقدراً على أن أموت ، فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ .. وإذا كان مقدراً لى الحياة .. فعلام أدفعه؟؟»

وظل على رأيه .. إلى أن نفذ فيه حكم الإعدام . . وبذلك أصبح « السيد محمد كريم » بجانب زعامته للشعب ، أول شهيد من شهداء الحرية ، فى عهد الحملة الفرنسية

***

هذه خلاصة موجزة ، لسيرة ذلك البطل المصرى ، الذى

(٢) عبد الرحمن الرافعى . الحركة القومية حـ ١ ص : ١١٨

(٣) نفس المصدر ص : ١٥٠

(٤) عبد الرحمن الرافعى : ص ١٥٠ عن : ريبو . التاريخ العالمى والحربى للحملة الفرنسية حـ ٣